أَثَرُ القُرْآنِ في خِطَابَةِ العَصْرِ الأُمَوِيِّ

د. عزت ملا ابراهيمي عبد الوحيد نويدي

جامعة طهران - جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

إنَّ النثر الفنيّ من أهم الأنواع الأدبية، فقد استقبله الأدب العربي منذ ظهوره و فسح له مجالا واسعا فأقبل عليه كثير من الأدباء و الكتّاب البارعين و ألّفوا آثاراً قيمة بهذا النوع من النثر و أهدوها إلي الأدب العربي. توسّعت دائرة النثر إثر ظهور القرآن و الفتوحات الإسلامية في العصر الاموي و ظهرت فيه خصائص فنية كثيرة بالقياس مع النثر الجاهلي. احد انواع النثر في العصر الاموي هو الخطابة التي تأثرت بآيات القرآن و معانيه، و للقرآن بالإضافة إلى تأثيره في واقع الأسلوب الجمالي فضل في إغناء ثروة الخطيب اللغوية، فالخطباء سلكوا نهج القرآن في خطبهم، يسعي هذا البحث الى دراسة اثر القرآن في خطابة العصر الاموي و تحليلها لدي بعض الخطباء المشهورين.

بسم الله الرحمن الرحيم

١. المقدمة:

الخطابة مأخوذة مِن «خَطَبْتُ أَخْطُبُ خِطَابَةً» كما يقال «كَتَبْتُ أَكْتُبُ كِتَابَةً». و اشتق ذلك من «الخَطْبِ» و هو الامر الجليل، لانه إنّما يقام بالخطب في الامور التي تجلُّ و تَعظمُ. و الاسم منها: «خاطب» مثل: «راحم» فإذا جعل وصفا لازما قيل «خطيب» كما قيل في «راحم»، «رحيم»، و جعل «رحيم» أبلغ في الوصف و أبين في الرحمة. و كذلك لايسمّى خطيبا الا مَن غلب ذلك على وصفه، و صار صناعةً له (ابن وهب، ١٣٧٨ هـ: ص١٩٢).

و في اصطلاح الحكماء مجموع قوانين يقتدر بها على الاقناع الممكن في أي موضوع يراد -و الاقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول و صواب الفعل أو الترك (محفوظ، ١٤٠٣هـ: ص١٣). و يعرفها الدكتور احمد محمد الحوفي: هي فن مشافهة الجمهور و اقناعه و استمالته (الحوفي، ١٤٢٢هـ: ص٥و٦). عرفها حسن الحاج حسين: هي لون آخر من الوان اللسن و البيان ازدهر على ايدي العرب في الجاهلية ازدهارا مباركا (الحاج حسين، ١٤٠٤هـ: ص٢٣٩). و قد عرفها محمود محمد عمارة: هي فن مخاطبة الجمهور بطريقة القائية، و تشتمل على الاقناع و الاستمالة (عمارة، ١٤٠٧هـ: ص٩).

فالخطابة قطعة من النثر الرفيع، قد تطول أو تقصر حسب الحاجة لها. و هى من أقدم فنون النثر، لأنها تعتمد المشافهة، لأنها فن مخاطبة الجمهور بأسلوب يعتمد على الاستمالة و على اثارة عواطف السامعين و جذب انتباههم و تحريك مشاعرهم و ذلك يقتضى من الخطيب تنوع الأسلوب و جودة الإلقاء و تحسين الصوت و نطق الإشارة.

أما الإقناع فيقوم على مخاطبة العقل، و ذلك يقتضى من الخطيب ضرب الأمثلة و تقديم الأدلة و البراهين التي تقنع السامعين.

من اهم خصائص أسلوب الخطبة:

قصر الجمل و الفقرات، جودة العبارة و المعانى، شدة الإقناع و التأثير، السهولة و وضوح الفكرة، جمال التعبير و سلامة الألفظ، التنويع في الأسلوب ما بين الإنشائي و الخبري.

٢. اهمية الخطبة:

تنبثق اهمية الخطبة من امور. منها: كونها حاجة نفسية و منها: ظاهرة من ظواهر المجتمع البشريّ و منها: وحدتها الكلمة بسحرها و فاعليتها و منها بيان من البيان الذي هو نعمة الله على الانسان و منها سلاح من اسلحة الدعوة (عمارة،، ١٤١٨هـ. ق، ص١٢).

٣. اسبقية البحث:

من اهم الكتب التى تناولت موضوع تأثير القرآن في الخطب كتاب «فن الخطابة» لأحمد محمد الحوفي و كتاب «تاريخ الخطابة العربية الى القرن الثاني» لعبد الكريم ابراهيم دوحان الجناني و كتاب «الاقتباس من القرآن الكريم» للثعالبي. لكنَّ هذه الكتب اكتفت بذكر الآيات القرآنية و استخراجها من الخطب و لم تتناول دراسة اثر القرآن على الخطب و تحليلها. فيسعى هذا المقال دراسة اثر القرآن في خطابة العصر الاموي و تحليلها لدى بعض الخطباء المشهورين.

٤. الاسئلة:

أ. هل الاقتباس من القران الكريم في العصر الاموي اكثر من عصر النبوة و الخلافة الراشدة؟.

ب. ماهي العوامل التي أدت الى كثرة الاقتباس من القرآن في العصر الاموي؟.

ت. هل نجد تاثير القرآن كبيراً في خطب خطباء الامويين؟.

ث. هل الخطباء قد سلكوا طريقة واحدة في الاقتباس من القرآن؟.

٥. الفرضيات:

أ. ان الاقتباس من القران الكريم كان في العصر الاموي اكثر من عصر النبوة و الخلافة الراشدة.

ب. منها: أن القران لم يكن في عصر النبوة و الخلافة الراشدة يحفظ أو قدتَمَّ حفظه إلا من نفر قليل جدا، و لكن نجد ان الفترة الزمنية من

عصر النبوة و الخلافة الراشدة الى العصر الاموي جعلت الحفاظ يكثرون، منها: ان الرجل المسلم في عصر النبوة كان يحفظ الآيات من أجل أن يتلوها في الصلاة و اما في العصر الاموي فقد انتشر القران و كثر حفاظه اذ ان عثمان كان قد كتب المصاحف و وزعها في الامصار، و جاء بنو امية فنشرو منها نسخا كثيرة، فسهل على المسلمين ان يقرأوا و ان يحفظوا. منها: انّ الجهاد شغل المسلمين في عصر النبوة و الخلافة الراشدة و لكن في العصر الاموي هدأت الفتوح.

ت. ان خطباء هذا العصر من الخوارج و الشيعة و الزبيرين يكثر اقتباسهم من القرآن الكريم و يقل في خطب الحزب الاموي ما عدا الحجاج لانه كان يحفظ القرآن و كان يعلمه.

ث. لا، تباين الخطباء في طريقة ذكر النص في خطبهم، فمنهم من كان يشير إلى الأخذ من القرآن الكريم، نحو (قال تعالى، وقال عز وجل) أو نحو، (وهو قول الله)، بينما أغفل بعضهم الآخر الإشارة إلى الأخذ، بل يذكره في ثنايا كلامه وكأنه جزء من خطابته.

٦. **الخطابه في العصر الاموي:**

الخطابة في العصر الاموي كانت استمرارا للخطابة في صدر الاسلام الاول و لكن زادت فيها امورا: منها أن الخطبة طالت، فلمّا كثرت أوامر الدولة الاموية بتطور الحياة السياسية و الادارية احتاج الخطباء الى بسط القول في ذلك. ثم عرف صدر العصر الاموي ثورات و حروبا و احتاج الولاة الى تصريف القول بالاقناع و بالوعيد عند مخاطبة الجموع و ذلك ايضا اقتضى اطالة الخطبة. و في هذا العصر نشأت طبقات جديدة في المجتمع كطبقة المولّدين و لم يكن من المنتظر أن يفهم المولّدون الايجاز العربيّ لمحاً فاحتاج الخطيب من اجل ذلك الى أن يردّد المعنى الواحد في تراكيب متشابهة متقاربة فزاد ذلك ايضا في طول الخطبة (فروخ، ١٩٨١م: ج١ص٣٧٢).

إضافة الى ذلك، البيئة في العصر الاموى بيئة اضطراب سياسى و اجتماعى و لاسيما بعد مقتل عثمان بن عفّان فقد اصطرع المسلمون صراعا عنيفا و لاسيما العلويون و الامويون منهم، قامت الزبيرية فطالت الخلافة كما قام الخوارج يكفّرون عليا و معاوية. و نهضت القبائل في عصبية متجددة، تتنافر و تتجالد. و كان العراق اشد البلاد اضطرابا و اضطراما. و في هذا الصراع كله كانت الخطابة وسيلة و عدة. و هذه العوامل كلها اثرت في ازدهار الخطابة في العصر الاموي.

تختلف انواع الخطابة باختلاف الموضوع و المضمون، منها الدينية: التى تعمد إلى الوعظ و الإرشاد و التذكير و التفكير. ومنها السياسية: التى تستعمل لخدمة أغراض الدولة أو القبيلة. منها الاجتماعية: التى تعالج قضايا المجتمع الداخلية و العالقة منها من أمور الناس، كالزواج... ومنها الحربية: التى تستعمل بغية إثارة الحماسة و تأجيج النفوس و شدّ العزائم. ومنها القضائية: التى تقتضى الفصل والحكم بين أمور الناس و يستعملها عادة الحاكم أو القاضي.

و منها ايضا خطابة الوفود و خطابة المناظرة التى تسيطر عليها روح الخصام و روح الجلاد و روح اللباقة و شاعت في الخطب الدينية روح الفلسفة و الجدل و في خطابة الوفود نزعة البلاغة و حفلت خطابة الخوارج بالعاطفة الدينية و العميقة و اما خطابة الشيعة فكانت خطابة تظلم و صدق و عاطفة (راجع الفاخوري، ١٩٨٦م: ص٣٥٨ الى ٣٦٠).

تميزت الخطابة في هذا العصر بكثرة الاستعانة بالنص القرآني حتى لينذر أن نرى خطبة تخلو من التمثل بأي الذكر الحكيم وخصوصاً في خطب الوعظ والسياسة والفتوح. فقد استثمر الخطيب الأموي الآيات القرآنية في الوعظ و الدعوة إلى تقوى الله سبحانه وتعالى، و التحقير من أمر الدنيا الزائلة في الخطابة الدينية و الدعوة إلى الطاعة و لزوم الجماعة والتحذير من

الفتنة في الخطابة السياسية و في جذب المؤيدين للوقوف بوجه الخلافة في خطب المعارضين مستعينين بالنص في اتهام بنيأمية بمخالفة الكتاب و السنة و توجيه النصوص القرآنية بما يخدم أفكارهم و عقائدهم الدينية والسياسية فيما وظّف خطباء الفتوح القرآن الكريم في الحث على الجهاد و الصمود بوجه الأعداء حتى يتحقق النصر أو تنال الشهادة.

٧. تاثير القرآن في الخطابة:

إن الفضل في ارتقاء الخطابة في بلاغتها و تأثيرها يرجع الى الكتاب المبين من وجوه. منها: ان القرآن الكريم -و إن نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون و بفصاحتها يتفاخرون -بتراكيبه العالية و اساليبه المتينة التي أعجزت بلغاءهم و خطباءهم و أخذت بمجامع قلوبهم قد أكسبتهم ملكة من البلاغة في انتقاء المعاني و تخير الاساليب السامية غيرت ملكتهم الاولى و اطلقت ألسنتهم من عقال الوحشية و التقعر الذي كان ديدن كثير من خطبائهم فصاروا يقتفون اثره. ينسجون على منواله و يزينون كلامهم في رسائلهم و خطبهم بذكر آي منه حتى أنهم كانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا خلا كلامه عن آي القران الكريم.

و منها: أن ما جاء في القرآن الحكيم من الترغيب و الترهيب و الوعد و الوعيد على الاسلوب البالغ حد الاعجاز و ما كان له من التأثير في القلوب و الأخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن في اساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم يدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات و يملك من قلوب الرجال ما لا يملك بالبِدَر و الاموال.

القرآن الكريم هو الكتاب الذي لاريب فيه، أحكمت آياته، و فصلت كلماته، و بهرت بلاغته العقول، و ظهرت فصاحته على كل كلام، عجيب نظمه، و بديع تأليفه لايتفاوت و لا يتباين، و هو يشتمل على ذكر قصص و مواعظ احتجاجا، و حكم و أحكام،

واعذار و انذار، وعد و وعيد، و تحذير و تبشير، و امر و نهي، و آداب، فهو المثال الاعلى للبلاغة سواء في إيجازه أو في قوة تعبيره أو في ألفاظه و قد جمع العذوبة و الجزالة و السهولة، فالقرآن يأتي بانواع الخطاب الذي يوجد في الكلام، من التفصيل و الايجاز، و الجمع و التفريق، و الاستعارة و التصريح، و التجوّز و التحقيق، فمعاني القرآن التي تضمّنت الشريعة و الاحكام، و الاحتجاجات في اصل الدين، و الرد على الملحدين، على تلك الالفاظ البديعة، و موافقة بعضها بعضا في اللطف و البراعة، مما يصعب على البشر و يمتنع(الباقلاني، ١٣٨٢هـ: ص٥٤ تا ٦٣).

فللقرآن فضل عظيم على الخطابة فهو الذي هذّب عباراتها و أثر في اسلوبها، فلهذا عندما نرى الخطب في هذا العصر نراها من حيث اللفظ صفت و سهلت و عذبت و رقّت، ذلك لتأثرها بالقرآن.

جاء في البيان: ان خطباء السلف مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد و تستفتح بالتمجيد «البتراء» و يسمّون الخطبة التي لم توشح بالقرآن و تزين بالصلاة على النبي ﷺ «شوهاء». قال عمران بن حِطَّان: خطبتُ خطبة عند زياد ظننت إنّي لم أقصر فيها عن غاية و لم أرع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول هذا الفتي أخطب العرب لو كان في خطبته شئ من القرآن. خطب اعرابي فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد و الإستفتاح بالتمجيد قال: اما بعد «بغير ملالة لذكر الله و الإيثار غيره عليه فانا نقول كذا و نسأل كذا» فرارا من ان تكون خطبته بتراء أو شوهاء (جاحظ، ١٤٠٨هـ: ج٢ ص٦).

فالخطباء قد سلكوا نهج القرآن في الاستدلال إذ رأوه المثل الاعلى للكلام و وجدوا فيه أبلغ طرق الاقناع الخطابي، فقد اجتمع في ادلة القرآن الكريم ما لايمكن أن يجتمع من ادلة سواه اذ وجدوا فيه جمال اللفظ و جودة الاسلوب و مخاطبة الاحساس و وجدوا فيه معلما لطريق الاقناع و الاستدلال

فتاثروا طريقته. و اقتبسوا من عباراته و شاع بينهم الاقتباس منه، هذا التاثير جعل اسلوب الخطابة اسلوبا محكما و متينا و بعيدة عن الوحشي و الغريب. فأخذ الخطباء يرصّعون خطبهم بالآيات القرآنية إشارة او تهديدا. و أصبح القران قاموسهم اللغوي و ملاذهم الفكري و منهجهم الأسلوبي و مصدراً لمحاكاتهم في تشبيهاته البديعة، و استعاراته الجميلة و كناياته اللطيفة.

جملة القول ان كثيراً من الخطباء تأثر بالقران الكريم، اذ عني كثير من المسلمين بحفظه وتفسيره، و اشتهر في كل مدينة جماعة من المفسرين و المحدثين و الفقهاء، اضافة الى تأثيرالقران في واقع الاسلوب الجمالي للخطابة فضل في اغناء ثروة الخطيب اللغوية لان النبي جمع اللهجات العربية حول لهجة قريش و اوشك ان يجمع العرب على لغة واحدة. و قد ظهر التأثر بالقران في ثلاثة مظاهر:

(١ -٧) الاقتباس:

و هو أن يأخذ المتكلم شيئا من كلام غيره فيدرجه في كلام نفسه بعد التمهيد له لتأكيد ما أتي به من المعنى، فان كان قليلا فهو ايداع و ان كان كثيرا فهو تضمين، وعلى كل فانه يكون من كلام الله عز و جل أو من كلام رسول الله ﷺ أو من كلام البلغاء و غيرهم. و قد رخص بعض العلماء في تضمين بعض الآيات القرآنية في الخطب و المواعظ من غير افراط حتى استعمله كثير من الناس مالم يخرج القرآن في التضمين عن الغرض المسوق له (محفوظ، ١٤٠٣هـ: ص ٦٢).

كثرالاقتباس من القران، و المهارة في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة، حتى ليحسب الذي لايحفظ القران انّ الكلام كله للخطيب.

و انما عمد الخطباء الى الاقتباس، لانّهم يتذوّقون بلاغة القران، فيجدون في الآيات التي يقتبسونها تعبيرا صادقا عمّا يريدون أن يقولوا، لانّهم يعرفون استجابة سامعيهم للبلاغة، فيضيفون الى بلاغتهم هم وإلى تأثيرهم الخطابي أعظم ذخيرة من البلاغة (دوحان

الجناني، ١٤٢٦هـ: ص٢٢٦).

يقول الجاحظ «و كانوا يستحسنون ان يكون في الخطب يوم الحفل و في الكلام يوم الجمع آي من القران فانّ ذلك مما يورث الكلام البهاء و الوقار و الرقة و سلس الموقع» ثم يروي عن عمران بن حطّان قوله «انّ اول خطبة خطيتها عند زياد -او ابن زياد- فاعجب بها الناس و شهدها أبي و عمي ثمّ مررتُ ببعض المجالس فسمعتُ رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شئ من القران». (جاحظ، ١٤٠٨هـ: ج١، ص١١٥ و ١١٦).

انّ الاقتباس من القران لم يكن الطابع الغلاب في الخطب الدينية و الوعظية فقط كما زعم مؤلف كتاب «أدب السياسة في العصر الأموي» بل أن لخطباءالسياسة باعاً طويلاً في الأخذ من القرآن الكريم و أنهم ربما استعانوا بالنص الشريف أكثر من استعانة الوعاظ لأن السياسة تداخلت بالدين في هذا العصر و لأن أصحاب الفِرق- التي كانت دينية سياسية -يتخذون الدين ذريعة في الطعن على خصومهم. و الامثلة على الاقتباس من القرآن كثيرة للخطباء في هذا العصر.

و لعلّ واعظا لم يبلُغ ما بلغه الحسنُ البصري[1] من كثرة الاستعانة بكلام الله تعالى في خطبة لثقافته القرآنية الواسعة و ذاكرته المتوقدة و بديهته الحاضرة مما هيّأ لهذا الرجل القدرة المتميزة على استحضار النص في الموضح الذي يتطلّب الاستعانة به. يقول الحسن: عِظ نفسَك، فإن رأيتَها تتعظ فعظ غيرها، وإلا فاستحي من خالقك فإنه يقول: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٤٤] (الثعالبي، ج١، ص٢٠٣).

في هذه الخطبة يستعين الحسن بالقرآن الكريم في تدعيم فكرة الدعوة إلى إصلاح النفس قبل إصلاح الغير.

(١) الحسنُ البصري: كان الحسن بن أبي الحسن البصري (٢١هـ. ق -١١٠هـ. ق) يعدّ من أعاظم محدّثي العامّة و تنتهى أسناد كثير من رواياتهم إليه(هلالى، ١٤٠٥هـ. ق، ج١، ص١٥٤).

و ما من إنسان إلا تجوز عليه المعصية، و كل ابن آدم خطّاء، و خير الخطّائين التوابون، أما الأنبياء فهم معصومون فيما يبلّغونه عن الله -جلّ وعلا. و هذا لا يمنع من مجاهدة النفس حتى يتوافق القول مع الفعل و العلم، حتى تكون الدعوة أوقع في النفوس؛ إذ الدعوة بالسلوك أبلغ من الدعوة بالقول، و قد قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٤] والذّم في هذه الآية إنما يلحق مَنْ تعدّى حدود الله و لم يعمل بعلمه.

و في ميدان الخطابة السياسية يتميز الخوارج بكثرة اعتمادهم على القرآن الكريم في توكيد ما يدعون من اتباعهم الصراط القويم، و في حث مقاتليهم على التجلّد و الصبر في ملاقاة الاعداء حيث يستشهدون بالنص الذي يرونه ملائماً لتوجهاتهم و أفكارهم. اجتمعت الخوارج بأرجان فبايعوا الزبير بن علي[٢] فرأى فيهم انكسارا شديدا و ضعفا بيّنا فقال لهم اجتَمِعُوا فاجتَمَعُوا فحَمِدَ اللهَ و أثنَى عليه و صلَّى علَى محمدٍ رسولِهﷺ فقال إنَّ البلاءَ للمؤمنينَ تمحيصٌ و أجرٌ و هو علَى الكافرين عقوبةٌ و خزيٌ و إن يُصِب منكم أمير المؤمنين[٣] فما صارَ إليه خيرٌ مما خلفَ... و الله يقولُ لإخوانكم المؤمنينَ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠] فيومَ سلَى كأنّ لكم بلاءً و تمحيصاً و يوم سولاف كأنّ لهم عقوبةً و نكالاً

(٢) الزبير بن علي: انه من الخوارج، كان على مقدمة ابن الماحوز، و كان ابن الماحوز يخاطب بالخلافة، و يخاطب الزبير بالأمارة. و وصل الزبير بعد هلاك حارثة ابن بدر، وهرب أصحابه إلى البصرة، فخافه الناس خوفا شديدا، وضج أهل البصرة إلى الأحنف، فأتى القباع، فقال: أصلح الله الأمير!. إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا، فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزالا. قال: فسموا إلى رجلا يلي الحرب، فقال الأحنف: لا أرى لها رجلا إلا المهلب بن أبي صفرة، فقال: أو هذا رأى (ابن ابي الحديد، ١٤٠٤هـ. ق.، ج٤، ١٤٦).

(٣) يقصد بأمير المؤمنين عبيد الله بن الماحوز الذي قتل في إحدى المعارك.

فلا تغلبنَّ على الشكر في حينه و الصبر في وقته... (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤هـ. ق.، ج٤، ص١٥٦).

ففي هذه الخطبة يجزم هذا القائد بأن إيمان الخوارج يوازي إيمان السلف الصالح، حينما تمثل بنص يخاطب المسلمين بعد وقعة أحد، حيث أفاد من هذا النص في توظيف عنصر المشابهة بين الحادثتين في كون كل منهما واقعة بين الإيمان والكفر كما يرى.

ويرى قطري بن الفجاءة[٤] و هو يمثل وجهة نظر الخوارج في الحياة أن الدنيا و من كان مبتغاها زائلة فإن الله سبحانه لا يجنسه هذا المبتغى و لكن الآخرة ليست له حيث يأتي بالنص و مشيراً إليه. صعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وَ تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ وَ عُمِّرَتْ بِالْآمَالِ وَ تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا وَ لَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ زَائِلَةٌ نَافِدَةٌ أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ... وَ إِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ لِامْرِئٍ وَ احْلَوْلَى أَمَرَّ عَلَيْهِ جَانِبٌ مِنْهَا فَأَوْبَى... أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ يَقُولُ اللَّهُ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود: ١٥ -١٦] (ابن شعبة حراني، ١٤٠٤هـ. ق. ١٨٢).

في هذه الخطبة يحاول قطرى بن الفجاءة حث الناس على التقوى، و قصر الأمل وعدم التهالك على الدنيا الفانية ويسعى إلى تذكيرهم بأنّ العمر فان، فحشد ما بذاكرته من صور تقرّب معاني الفناء والزوال و قصر العمر أملا منه بان يتعظهم لا طمعا في عطفهم عليه مسندا موعظته بنص قراني. وهي سياسة

(٤) قطري بن الفجاءة: كان زعيما من زعماء الخوارج؛ خرج زمن مصعب بن الزبير سنة ٦٦هـ. ق. و بقى عشرين سنة يقاتل و يسلم عليه بالخلافة؛ و كان الحجاج يسير إليه جيشا، و هو يستظهر عليه، إلى أن توجه إليه سفيان بن أبرد الكلبي، فظهر عليه و قتله سنه ٧٨ هـ. ق. (علم الهدى، ١٩٩٨م، ج١، ص٦٣٦).

شيطانية خبيثة اتبعها الخوارج للظهور بمظهر التقوى التي كذبتها أفعالهم مع كل من يخالفهم الرأي حتى لو كان هذا المخالف في اسمى درجات القرب من الله ورسوله وشريعته وقد ذكرنا هذا للتنبيه نعود بعده الى صلب الموضوع.

لَمَّا سار معاويةُ قاصداً العراقِ و بلغ جسرَ مَنْبِجٍ نَادى المُنادي الصَّلاةَ جامعةً فلمَّا اجْتَمَعُوا خرج الامام الحسنُ عليه السلام فصعِدَ الْمِنْبَرَ فحمِدَ اللهَّ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَّ كَتَبَ الْجِهَادَ عَلَى خَلْقِهِ وَ سَمَّاهُ كُرْهاً ثُمَّ قَالَ لِأَهْلِ الْجِهَادِ مِنَ الْمُؤْمِنِين ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الانفال: ٤٦] فَلَسْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نَائِلِينَ مَا تُحِبُّونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُعَاوِيَةَ بَلَغَهُ أَنَّا كُنَّا أَزْمَعْنَا عَلَى الْمَسِيرِ إِلَيْهِ فَتَحَرَّكَ لِذَلِكَ فَاخْرُجُوا رَحِمَكُمُ اللهُّ إِلَى مُعَسْكَرِكُمْ بِالنُّخَيْلَةِ حَتَّى نَنْظُرَ وَ تَنْظُرُوا وَ نَرَى وَ تَرَوْ: (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤ ق، ج١٦، ص٣٨ و مجلسى، ١٤٠٣هـ. ق. ، ج٤٤، ص٥٠).

إن الامام الحسن هنا يستعين بالقران الكريم ليزرع الصبر وتحمُّل المصاعب في قلوب الناس، بالفاظ تتسم بالوضوح و البيان، سهلة الادراك من السامعين سريعة الايصال إلى المقصود بعيدة عن الوحشيّ و التكلف.

سال معاوية الحسن بن علي عليهما السلام بعد الصلح أن يخطب الناس فامتنع فناشده أن يفعل، و يحسن الامام الحسن التعليل في خطبته موضحا أن الملك لله وحده يهبه لمن يشاء وينزعه عمن يشاء، فالامام يبتغي من خلال استشهاده بالنص الإلهي إقناع مخاطبيه بأن الخلافة قد تؤول إلى من ليس لها بأهل.

«الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي تَوَحَّدَ فِي مُلْكِهِ وَ تَفَرَّدَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَ يَنْزِعُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ وَ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي أَكْرَمَ بِنَا مُؤْمِنكُمْ وَ أَخْرَجَ مِنَ الشِّرْكِ أَوَّلَكُمْ وَ حَقَنَ دِمَاءَ آخِرِكُمْ فَبَلَاؤُنَا عِنْدَكُمْ قَدِيماً وَ حَدِيثاً أَحْسَنُ الْبَلَاءِ إِنْ شَكَرْتُمْ أَوْ كَفَرْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّ عَلِيٍّ كَانَ أَعْلَمَ بِعَلِيٍّ حِينَ قَبَضَهُ إِلَيْهِ وَ لَقَدِ اخْتَصَّهُ بِفَضْلٍ لَنْ تُعْهَدُوا بِمِثْلِهِ وَ لَنْ تَجِدُوا مِثْلَ سَابِقَتِهِ... فَعِنْدَ اللهَّ أَحْتَسِبُ مَا مَضَى

وَ مَا يُنْتَظَرُ مِنْ سُوءِ رَغْبَتِكُمْ وَ حَيْفِ حِلْمِكُمْ. ثُمَّ قَالَ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ لَقَدْ فَارَقَكُمْ بِالْأَمْسِ سَهْمٌ مِنْ مَرَامِي اللَّهِ صَائِبٌ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ نَكَالٌ عَلَى فُجَّارِ قُرَيْشٍ لَمْ يَزَلْ آخِذاً بِحَنَاجِرِهَا جَاثِماً عَلَى أَنْفُسِهَا لَيْسَ بِالْمَلُومَةِ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَ لَا بِالسَّرُوقَةِ لِمَالِ اللَّهِ وَ لَا بِالْفَرُوقَةِ فِي حَرْبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ أَعْطَى الْكِتَابَ خَوَاتِيمَهُ وَ عَزَائِمَهُ دَعَاهُ... (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤ ق، ج١٦، ص٢٨).

قول الامام الحسن عليه السلام هذا «يُؤتِي المُلك مَن يشاءُ و ينزِعه عمن يشاءِ» نص قرآني و لكنه استبدل ضمير الغائب بضمير المخاطب، و النص هو قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦]. هذان النصان كافيان لاستجلاء فصاحة سيد شباب اهل الجنة و قوة بيانه و حجته و تأثيره.

و نجد أثرا قويا للقران الكريم و استثمارا أمثل لنصوصه بما يلائم الموقف و يتفاعل مع الحدث في خطبة السيدة أم كلثوم[٥] بنت الإمام علي عليه السلام بعد وقعة كربلاء. هذه الخطبة مفعمة بالغيظ صادرة عن طبع موات و عاطفة مستعرة، لذا نجد هذه السيدة الجليلة تستعين بأكثر من نص قراني لترسم بشكل دقيق فداحة الحدث في قلوب المخاطبين. لقد أوضحت ابنة أمير المؤمنين عليه السلام للناس خبث ابن زياد و لؤمه في خطبتها، بعد ان أومأت الى ذلك الجمع المتراكم فهدؤوا حتى كانّ على رؤوسهم الطير. فيقول الرواى: لما أومأت زينب ابنة علي عليه السلام الى الناس فسكنت الأنفاس والأجراس، فعندها اندفعت بخطابها مع طمأنينة نفس، و ثبات جاش، و شجاعة حيدرية، فقالت: الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الاخيار اما بعد يا أهلَ الكوفة إنَّكم تَبكُون علينا، فمَنْ قَتَلَنَا غيرُكم؟. و أوْمَأت أمُّ كلثوم بنتُ عليّ عليه السلام إلى الناس أن اسكتوا، فلما

(٥) ام كلثوم: هي بنت علي بن ابي طالب ولدت في حدود سنة ستّ من الهجرة (الذهبي، ج٣، ص٥٠٠).

سكنت الأنفاس، و هدأت الأجراس، قالت: «أبدأُ بحمد الله و الصلاةِ و السلامِ عَلَى نبيه، أما بعدُ: يا أهلَ الكوفة، ياأهلَ الخَتر[٦] و الخَذل، لا، فلا رَقَأَتِ[٧] العبرةُ، و لا هَدَأَتِ الرَّنّةُ، إنما مَثَلُكم كمَثَلِ الّتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعدِ قوةٍ أَنْكَاثا[٨] تَتَّخِذُون أيْمانَكُم دَخَلاً بينكم،... ألا سَاءَ ما قدَّمَتْ أنفُسُكم أنْ سَخِطَ اللهُ عليكم، و في العذاب أنتم خالدونَ، أتَبكُونَ؟. إي و الله فَابكُوا، و إنكم و الله أحرِياءُ بالبكاء، فابكُوا كثيرا، و أضحَكُوا قليلا،... و بُؤْتُم[٩] بغَضَبٍ من الله، و ضربت عليكم الذِّلةُ و المَسكَنةُ،...»: (طَيفُور، أحمد بن ابي طاهر، ١٣٩١هـ. ق، ص٣٨).

استخدمت السيدة ام كلثوم التشبيه في خطبتها حينَما قالت «انَّما مَثَلُكُم كَمَثَلِ الّتي نَقَضَت غَزلَها من بعدِ قُوَّةٍ إنكاثا تَتَّخذُونَ أيْمَانَكُم دَخَلاً بينكم...» هذه العبارة نص قراني مجتزأ من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة النحل: ٩٢].

و قولها ايضا «ألا سَاءَ ما قدَّمَتْ لكم أنفُسُكم أنْ سَخِطَ اللهُ عليكُم و فِي العَذابِ أنتُم خَالِدُون» هذه الجملة مقتبسة من قوله تعالى ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٠]. و قولها «فابكَوا كثيرا و اضحكُوا قليلا» اشارة الى قوله تعالى ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾ [سورة التوبة: ٨٢].

ثم اقتبست السيدة زينب من القران و استلهمت منه عندما قالت «بُؤْتُم بغَضَبٍ من الله و ضُرِبَت عليكم الذِّلةُ و المَسكَنةُ» من قوله تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ٦١]. و قولها ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ هذه كلها من القران الكريم [سورة الفجر: ١٤].

قد برئت الفاظ السيدة ام كلثوم

(٦) الغدر و الخديعة.
(٧) رقأ الدمع: جفَّ و سكن.
(٨) جمع نكث و هو ما نقض ليغزل ثانية.
(٩) رجعتم.

من الاغراب و التعقيد و الاستكراه و هى مع هذا الفاظ جزلة لها بهاء و رونق تعمر بها القلوب و ترتاح اليها الاسماع، كانت السيدة زينب في هذه الخطبة شديدة الثقة بما تقول، صادقة اليقين بما تفيض به نفسها و ينطق به لسانها، إذ لا يؤثِّر الّا المتأثِّر و ما كان من القلب فهو يصل الى القلب.

و يستدل خطيب العلويين عبيد الله المري بالقران الكريم في وجوب الأخذ بثار الحسين وأصحابه قائلا: (أما بعدُ فانَّ اللهَ اصطفَى محمّداً بِنبوتِهِ و خَصَّهُ بالفَضل كلِّه، و أعزَّكم باتباعه و أكرمَكم بالإيمان به.. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣] (تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٩).

فهو يفتتح خطبته بالإشارة إلى نبوة المصطفى صلوات الله عليه و فضله على الناس إذ أنقذهم من ضلال الشرك إلى نور الإسلام بتوفيق الله موثقا هذه الحقيقة بالنص الكريم، ليحق له التساؤل و بشكل يثير العجب و الدهشة، كيف تقتل ذريته و انتم سكوت أيهـــا المخاطبون؟. و في هذا الاستدلال المنطقي و السؤال التهكمي ما يلهب الحماسة و يثير العواطف.

يدعو صالح بن مسرح التميمي الخارجي[١٠] مخاطبيه إلى فراق من أسماهم بالفاسقين و هم المسلمون المخالفون لعقيدتهم عادة حيث يقول: «الحمدُ لله الَّذي خَلقَ السمواتِ والأرضَ وجَعَلَ الظُّلماتِ و النورَ، ثُمَّ الذين كَفَرُوا بربِّهم يَعدِلُون، اللهمَّ إنا لا نَعدِلُ بكَ، ولا نَحفدُ إلا إليك، ولا نَعبُدُ إلا إيّاكَ،... إن الزهادة في الدنيا ترغب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله... وان فراق الفاسقين حق على المؤمنين، قال الله تعالى في

(١٠) صالح بن مسِّرح التميمي الخارجي: كان رجلا ناسكا مصفرّ الوجه صاحب عبادة و كان بدارا و أرض الموصل و الجزيرة و له اصحاب يقرأ بهم القرآن و الفقه و يقصّ عليهم فدعاهم الى الخروج و إنكار الظلم و جهاد المنافقين لهم (ابن الاثير، ج٤، ص٣٩٣).

كتابه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٨٤] (صفوت، ١٤٠٥هـ: ج٢ص٤٤٠و٤٤١).

و نـــــــرى الخطيب هنا و هو من منظري الخوارج و قوادهم يحتج بالقران الكريم على وجوب فراق مخالفيهم، و قد اختار نصا يخاطب رسولﷺ و يأمره بعدم الصلاة على المخلفين الذين تباطؤا عن نصرته، و كفروا بالله تعالى، فلا يستحقون صلاة النبيﷺ عليه لأنّ صلاته عليهم سكنٌ لهم و تخفيف لذبونهم، فهو ينظر إلى المسلمين من غير الخوارج نظرته لأولئك الذين أشار إليهم النص الكريم، و هذه النظرة التي يفسرها هذا الاختيار للنص القرآني تدل على تعصب عميق لمذهب الخوارج واعتقادهم الراسخ بكفر المسلمين المخالفين لمبادئهم.

في يوم عاشوراء كان الحسينعليه السلام يغتنم فرصة لاسماع صوته الى الجيوش القادمة لقتله ليتمّ الحجة عليهم. و من خطبه في هذا اليوم الرهيب: أَمَّا بَعْدَ فَتَبّاً لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَ تَرَحاً حِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفاً كَانَ فِي أَيْمَانِنَا وَ حَشَشْتُمْ عَلَيْنَا نَاراً اقْتَدَحْنَاهَا عَلَى عَدُوِّنَا وَ عَدُوِّكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ إِلْباً عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ وَ يَداً عليهم لِأَعْدَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ وَ لَا لِأَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ وَ عَنْ غَيْرِ حَدَثٍ كَانَ مِنَّا وَ لَا رَأْيٍ تَفَيَّلَ عَنَّا فَهَلَّا لَكُمُ الْوَيْلَاتُ تَرَكْتُمُونَا وَ السَّيْفُ مَشِيمٌ وَ الْجَأْشُ طَامِن... وَ لَكِنِ اسْتَسْرَعْتُمْ إِلَيْهَا كَتَطَايُرِ الدَّبَى وَ تَدَاعَيْتُمْ عَنْهَا كَتَدَاعِي الْفَرَاش فَسُحْقاً وَ بُعْداً لِطَوَاغِيتِ الْأُمَّةِ وَ شُذَّاذِ الْأَحْزَابِ وَ نَبَذَةِ الْكِتَابِ وَ نَفَثَةِ الشَّيْطَانِ وَ مُحَرِّفِي الْكَلَامِ وَ مُطْفِئِي السُّنَنِ وَ مُلْحِقِي الْعَهْرَةِ بِالنَّسَبِ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٩١] ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المائده: ٨٠]... أَلَا فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى النَّاكِثِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلُوا اللهَ

عَلَيْهِمْ كَفِيلًا أَلَا وَ إِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ مِنَّا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ الْمِلَّةِ [السَّلَّةِ] وَ الذِّلَّةِ وَ هَيْهَاتَ مِنَّا الدَّنِيئَةُ يَأْبَى اللهُ ذَلِكَ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ حُجُورٌ طَابَتْ وَ أُنُوفٌ حَمِيَّةٌ وَ نُفُوسٌ أَبِيَّةٌ... فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ -﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة هود: ٥٦] (ابن شعبة حراني، ١٤٠٤هـ. ق، ص٢٤٠).

هذه الخطبة تبدأ بتقريع السامعين و الدعاء عليهم «فَتَبّاً لَكُمْ و تَرَحاً». ثم يذكّرهم الحسين باستغاثتهم به «اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ» و يبيّن كيف اجاب استغاثهم موجفا أى مسرعا. و بعبارات رائعة يشير الامام الى تغيُّر حال هؤلاء القوم، فكانت سيوفهم بأيمانهم (ايديهم) لنصرة أهل البيت لكنهم انقلبوا فاصبحوا إلبا (معتدين) على هذا البيت الكريم. ثم يكشف الحسين عن خسّة هؤلاء القوم و دناءتهم حين دفعتهم الاطماع الدنيوية الى هذا الموقف... و كان بامكانهم ان يتركوا الحسين دون قتاله حين كان السيف مشيم (في غمده) و الفزع طامن (ساكن) و لكنهم أبوا الّا ان يسارعوا لقتله كالجراد و البعوض. ثم يؤكد الامام على موقفه المبدئى رغم قلة الناصر و يتنبأُ بالمستقبل الوخيم الذى ينتظرهم. ان الامام في خطبته هذه اكثر من الوعظ و الارشاد و التحذير متمثلاً بالنص القرآني في تقوية حجته و دعواه، و هو يحسن استثمار القرآن الكريم في هذا الجانب.

لّما قَتَلَ عبدُ الملك بن مروان مُصْعَبَ بن الزبير سنة ٧١هـ. ق. و انتهى خبر مقتله الى عبد الله بن الزبير، اعرض عن ذكره أيّاما، حتى تحدث به جميع أهل مكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَلِيّاً لا يتكلم، و الكآبة على وجهه بادية، و جبينه يَرْشَحُ عرقا، فقال رجل من قريش لرجل الى جانبه ما له لايتكلم، أتراه يهاب النطق؟ فوالله انه للبيب الخطباء، قال: لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيِّد العرب، فيشتدّ ذلك عليه و غير ملوم، ثم تكلَّم فقال:

«الحمدُ لله الذي له الخلقُ و الأمرُ و ملكُ الدنيا و الآخرة، يُؤتِي المُلكَ مَن يَشاءُ، و يَنْزِعُ الملكَ ممَّن يَشاءُ، و يُعِزُّ مَن يشاءُ، و يُذِلُّ مَن يَشاءُ، أما بعدُ: فانَّه لم يُعِزَّ اللهُ مَنْ كان الباطلُ معه، و إن كانَ مَعَه الأنامُ طُرَّاً، و لم يُذِلَّ مَنْ كان الحقُ معه، و إن كان مُفرَدا ضَعيفا و لا يعزُّ من كان الباطلُ معه و إن كان ذا عددٍ و كثرةٍ فإن قتله كان له شهادة و إن الله جاعل لنا و له في ذلك الخيرة ألا إن أهل العراق باعوه بأقل الأثمان و أخسرها و أسلموه إسلام النعم المخطم» (مسعودي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م، ج٢ص١٢٣ و ابن عبد ربه، محمد، ١٤١١هـ/ ١٩٩٢م: ج٤ ص١٠٥).

قوله «يُؤتِي الملكَ مَن يشاءُ و يَنزعُ الملكَ ممَّن يشاءُ ويعزُّ من يشاءُ ويذلُّ من يشاءُ ». فان هذا من قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦].

ويعد الحجاج بن يوسف (٤٢هـ) والذي كان -والي العراق للأمويين- من أكثر خطباء السياسة وعظاً وتحذيراً من الدنيا متمثلاً بالنص القرآني قي تقوية حجته ودعواه، وهو يحسن استثمار القرآن الكريم في هذا الجانب مما يعكس ثقافته الواسعة. انه تَمَثَّلَ في خطبته عند مَقْدَمِه العراقَ بالآية ١١٢ من سورة النحل مع أنه كان يهدد اهلَ العراق و يخاطبهم بالقوة وبما اوتي من خبث ونفاق:

إني والله ياأهلَ العراق، و معدنَ الشقاق و النفاق، ومساوي الأخلاق، ما يُقَعْقَعُ[11] لي بالشِّنَان و لا يُغْمَزُ جانبيَّ كَتَغْمَازِ التِّين، و لقد فُرِرْتُ عن ذَكَاء، و فُتِّشْتُ عن تجربة، وجَرَيْتُ إلى الغاية القصوى،... فإنكم لكأهل ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾... أيُّها الناسُ مَن أعياهُ دَاؤُه فعِندِي دَواؤُهُ و من استطالَ أجلُهُ فعَلَيَّ أن أعجِّلَهُ و

(١١) تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح و غيره.

مَن ثَقُلَ عَليهِ رَأسُه وَضَعتُ عنه ثَقلَه و مَن استَطالَ مَاضِي عُمرِه قَصَّرتُ عَلَيهِ باقيَهُ إنَّ للشَّيطانِ طَيفاً و للسُّلطانِ سَيفاً فَمَن سَقمَت سَريرتُه صَحَّت عُقوبتُه و مَن وَضَعَهُ ذنبُه رَفَعَه صَلبُه و مَن لم تَسعَهُ العَافيةُ لم تضِق عنه الهلكةُ و من سَبَقَته بَادرةُ فَمِه سَبقَ بَدنُه بسفكِ دمِه إنّي أنذرُ ثُمَّ لا أنظُر و أحذرُ ثم لا أعذرُ و أتوعَّدُ ثم لا أعفُو... (صفوت، ١٤٠٥هـ. ق، ج٢ص٢٧٦ و جاحظ، ١٤٠٨هـ. ق. ، ج٢ ص٢١٠ و المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م: ج١ ص٣١٢).

قوله ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هذه كلها من القران الكريم [سورة النحل: ١١٢]. ان الله تعالى شبّه ما غشيَ الانسان عند الجوع و الخوف من النحافة و اصفرار اللون بإمرين باللباس لاشتماله على اللابس و اشتمال أثر الضرر على من به ذلك. فاستُعيرَ له اسمُه و شُبِّه ما غشيَ الانسان عند الجوع أى ما يدرك من أثر الضرر و الألم باعتباره إنه مُدرَك من حيثُ الكراهية، بما يُدرَك من الطعم المر البشع حتى اوقع عليه الإذاقة. فتكون الآية مشتملة على الاستعارة المصرَّحة نظرا الى الاول و المكنية نظرا الى الثاني. و تكون الإذاقة تخييلا بالنسبة للمكنية. يقال ايضا: شبِّه ما غشيَ الانسان عند الجوع و الخوف من أثر الضرر باللباس بجامع الاشتمال في كل و استُعير اسم المشبّه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.

و ربما جاءت الخطبة كلها من القران، كخطبة مصعب بن الزبير حينما بعثه اخوه عبد الله واليا على البصرة سنة٦٧هـ. ق. فخطب في الناس خطبة كلها آيات متتالية أدت الى المعنى الذي أراده في الخطبة دون أن يعبِّر بألفاظه الخاصة. فحين أراد أن يتحدث عن بني أمية و انهم ظلموا الرعية بعد أن حَمِدَ اللهُ و أثنى عليه قال:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ -﴿طسم

﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (و اشار بيده نحو الشام). ثم أكمل الآية ليبين للناس بأن الله سوف ينصر اهل الحجاز ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ (و اشار بيده نحو الحجاز). ثم قال: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ (و اشار بيده نحو العراق): (ابن الاثير، ٢٠٠٣م، ج٤، ص٢٦٦، ابن عبد ربه، ١٤١١هـ. ق، ج٤ ص١٣٨ و الطبري، ١٣٥٧هـ. ق، ج٧ ص١٤٦ و الجاحظ، ١٤٠٨هـ. ق.، ج٢ ص٢٠٥).

فهو في هذه الخطبة اعتمد القرآن وحده (القصص، الآيات ١ -٦ و يجيد اختيار الآيات المعبرة عما في نفسه. و هو في هذه الآيات شبه بني امية في الطغيان و العدوان على حق الحياة.

يقول الدكتور عبد الكريم ابراهيم دوحان في كتابه تاريخ الخطابة العربية ان كثرة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم هو كثرة الحفظة للقرآن الكريم في هذا العصر و بروز مفسرين كثيرين ايضا في هذه الفترة و كان هدف المسلم في هذا العصر هو حفظ القرآن والاستشهاد به في كلامه اليومي و حديثه العام، و انبري خطباء هذا العصر يستمدون منه المعاني العظيمة التي يستقوها من آياته العظيمة ليؤكدوا انهم احق من بني امية في الخلافة، و لذلك كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني يجرونها على السنتهم عامدين ليفخموا بها اقوالهم و يجتذبوا نفوس سامعيهم او غير عامدين ان يقتسبوها، انما جرت على السنتهم لانهم كما قال الدكتور دوحان الجناني حفاظ للقرآن الكريم قد فهموا ما حفظوا و تأثروا به، فاستقر في نفوسهم.

(٢ -٧) التأثر بالأسلوب القرآني:

و الأسلوب لفظا هو الطريق و

الوجه و المذهب، و الأسلوب هو الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه، و في اصطلاح البلاغيين: هو طريقة اختيار الألفاظ و تأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح و التأثير، أو هو العبارات اللفظية المنسّقة لأداء المعاني.

فالأسلوب القرآني هو طريقة تفرَّد بها في تأليف كلامه و اختيار ألفاظه، و لقد تواضع العلماء قديماً و حديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة و الخطابة و التأليف. فالأسلوب القرآني يشفي قلوب العامة و يكفي الخاصة، فظاهره القريب يهدي الجماهير و سواد الناس و يملأ فراغ نفوسهم بالترغيب و الترهيب و الجمال الأخذ في تعابيره و مشاهده، و باطنه العميق يشبع بهم الفلاسفة إلى مزيد من الحكمة و الفكرة، يحل العقد الكبرى عندهم من مبدأ الكون و منتهاه و نظامه و دقة صنعه و إبداعه.

فرسم للصياغة الراقية في البلاغة العربية اعظم اسلوب و ارقاه، و صار متأدبو العرب منذ اشرقت شمسه يرجعون اليه دارسين مستفهمين، يرون طريقته في الاداء و التصوير و الحوار و الاقناع اعلي ما يتطلع اليه عيون المتأملين، اسلوب القران يعطي النمط الامثل للتعبير في الادب العربي، و جمال الاسلوب و المعني في القران الكريم يتطرق طابعه و لا شك على الخطيب ليعيش في هذا الجو المشبع بالطهر(عماره، ١٤٠٧هـ. ق. صص١٦٨ تا ١٧٠).

اكتسب الشعراء و خاصة الخطباء و الكتاب، من اساليب القران و طرائفه في التعبير و مناهجه في سوق الاراء و صياغة الحجج، نحن نري هذا التأثر بالاسلوب القرآني في خطبة الحجاج بعد وقعة دير الجماجم فقال:

يا أهلَ العراقِ يا أهلَ الشقاقِ و النفاقِ إنَّ الشيطانَ استَبطَنَكُم فخَالطَ اللحمَ و الدمَ و العصبَ و المسامعَ و الأطرافَ و الأعضاءَ و الشغافَ[١٢] ثم أفضَى إلى الأمخاخِ و الأصماخِ ثم ارتفَعَ

(١٢) غلاف القلب أو حبته.

فعشَّش ثُمَّ باضَ ففرخَ فحَشاكُم نفاقاً و شقاقاً و مَلأَكُم غَدراً و خلافاً اتخذتمُوه دليلاً تَتبعُونَهُ و قائدا تُطيعُونَه و مُؤَامِرا تَستشيرُونَهُ فكيفَ تَنفَعُكم تجربةٌ أو تَعِظُكُم واقعةٌ أو يَحجزُكُم إسلامٌ... ظَنَنتُم أنَّ اللهَ يخذلُ دينُه و خلافتُه و أنا أرميكُم بطرفي و أنتم تَتَسلَّلُون لِواذاً[١٣] و تَنهَزِمُونَ سِراعاً ثُمَّ يومُ الزاوية[١٤] و ما يومُ الزاوية... ثمَّ يومُ ديرِ الجماجم[١٥] و ما يومُ دير الجماجم... بها كانتِ المعاركُ و الملاحمُ بضربٍ يُزيلُ الهامَ عَن مَقيلِهِ...: (جاحظ ج١٤٠٨هـ. ق.، ٢ص٩٤ و ابن ابي الحديد، ١٤٠٤هـ. ق، ج١، ص٣٤٤ و الحاوي، ايليا، دون تا، ص٢٧٩).

نحن نري في قوله (ثم يوم الزاوية و ما يوم الزاوية و ثم يوم دير الجماجم و ما يوم دير الجماجم) محاكاته اسلوب القرآن و بقوله تعالى ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [سورة الحاقة: ١ -٣] و قوله تعالى ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [سورة القارعة: ١ -٣].

(٣ -٧) استمداد المعاني:

من ذلك قول الامام الحسن عليه السلام في رده على الذين استنكروا صلحه مع معاوية فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال:

أما بعدُ فإنَّكُم شِيعتُنا و أهلُ مودَّتِنا، و مَنْ نَعرِفُه بالنَّصيحةِ و الاستقامةِ لنا، و قد فَهمتُ مَا ذَكَرتُم، و لو كنتُ بالحَزمِ في أمرِ الدُّنيا، و للدنيا أعْمَلُ وأنصَبُ، ما كان معاويةُ بأبأسَ منِّي و أشدَّ شَكيمةً، و لكانَ رَأيي غيرَ مَا رأيتُم،.. فو اللهَ لو سَرنَا إليه بالجبالِ و الشَّجَر مَا شَكَكْتُ أنه سَيَظهَرُ، إنَّ اللهَ لا مُعَقِّبَ لحُكمِه و لا رادَّ لقضائِه و أما قولُك يا مُذِلَّ المؤمنين فو الله لأن تَذِلُوا و تُعَافُوا أحَبُّ إليَّ مِنْ أن تَعِزُّوا و تُقْتَلُوا... مادامَ معاويةُ حيَّاً فإن يَهْلِك، و نَحنُ و أنتم أحياءُ، سَألنا اللهُ العزيمةَ عَلى رشدِنا، و المعونةُ على

(١٣) أي يلوذ بعضهم ببعض.
(١٤) موضع بالبصره كانت به الوقعه بين الحجاج و عبد الرحمن بن الاشعث.
(١٥) وقعه دير الجماجم كانت بين الحجاج و عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث قرب مكه سنه ٨٣هـ.. ق. و فيها هزم ابن الاشعث.

أمرنا، و أن لايَكِلنا إلى أنفسنا « فإن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون» (حاوي، دون تا، ص٢٠٢ و ابن قتيبة، ١٣٧٧هـ. ق، ج١ص١٧٢).

انّ الامام الحسن في هذه الجملة «انَّ اللهَ لا مُعَقِّبَ لحكمه، و لا رادَّ لقضائه» يلمح الى قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٤١] و قوله تعالى ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًا ﴾ [سورة الانفال: ٤٢].

و هو يقول في الخطبة نفسها «سألنا الله ألا يَكِلَنا الى أنفسنا» و هذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

الإخلاص والصِّدق في هذه الخطبة لهما أبلغُ الأثر في نفسية الامام، و هي التي تضبط انفعالاتِه، بحيث يُوجِّهها التوجيهَ السليم الذي ينفع به الدِّين، ولا شكَّ أنَّ ظهور أثر الصِّدق في وجه الداعي و صوته يؤثِّر في المخاطَب، ويحمله ذلك على قَبول قولِه واحترامه.

كل دارس لخطب آل البيت في العصر الامويّ لابد ان يقف طويلا عند خطب عقيلة بنى هاشم، زينب الكبرى، هذه المرأة التى تحيّر العقول في بلاغتها و فصاحتها و شجاعتها و صبرها و جهادها بعد مقتل الحسين عليه السلام فقد واصلت رسالة اخيها و اقامت الدنيا و لم تقعدها حتى زلزلت اركان البيت الاموي و أثارت المسلمين من شمال افريقيا الى خراسان ضد الظلم و الظالمين.

حين قامت في مجلس يزيد فَقَالَتْ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ آلِهِ أَجْمَعِينَ صَدَقَ اللهُ كَذَلِكَ يَقُولُ -ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ أَ ظَنَنْتَ يَا يَزِيدُ حَيْثُ أَخَذْتَ عَلَيْنَا أَقْطَارَ الْأَرْضِ وَ آفَاقَ السَّمَاءِ فَأَصْبَحْنَا نُسَاقُ كَمَا تُسَاقُ الْأُسَارَى أَنَّ

بِنَا عَلَى اللهَّ هَوَاناً وَ بِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةً وَ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ خَطَرِكَ عِنْدَهُ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ وَ نَظَرْتَ فِي عِطْفِكَ جَذْلَانَ مَسْرُوراً حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا لَكَ مُسْتَوْسِقَةً (مجتمعة) وَ الْأُمُورَ مُتَّسِقَةً لك و قد أُمْهِلْتَ و نُفِّسْتَ و هذه اشارة الى قولِ الله تبارك و تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٨]... وَ نُجُومِ الْأَرْضِ مِنْ آلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ تَهْتِفُ بِأَشْيَاخِكَ زَعَمْتَ أَنَّكَ تُنَادِيهِمْ فَلَتَرِدَنَّ وَشِيكاً مَوْرِدَهُمْ وَ لَتَوَدَّنَّ أَنَّكَ شَلَلْتَ وَ بَكِمْتَ وَ لَمْ يَكُنْ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ اللَّهُمَّ خُذْ بِحَقِّنَا وَ انْتَقِمْ مِنْ ظَالِمِنَا وَ أَحْلِلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنَا وَ قَتَلَ حُمَاتَنَا فَوَ اللهَّ مَا فَرَيْتَ إِلَّا جِلْدَكَ وَ لَا جَزَزْتَ إِلَّا لَحْمَكَ وَ لَتَرِدَنَّ عَلَى رَسُولِ اللهَّ بِمَا تَحَمَّلْتَ مِنْ سَفْكِ دِمَاءِ ذُرِّيَّتِهِ وَ انْتَهَكْتَ مِنْ حُرْمَتِهِ فِي عِتْرَتِهِ وَ لُحْمَتِهِ (قرابته) حَيْثُ يَجْمَعُ اللهُّ شَمْلَهُمْ وَ يَلُمُّ شَعَثَهُمْ وَ يَأْخُذُ بِحَقِّهِم و هذه اشارة الى قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩] (مجلسي، ١٤٠٣ ق، ج٤٥، ص١٣٣ و طيفور، ابو الفضل احمد بن ابى طاهر، ١٣٩١هـ. ق، ص٣٥و٣٦).

لا يملك الانسان الا ان يقف خاشعا امام هذه الخطبة و عظمة قائلها. فالموقف رهيب و المنظر مؤلم و كل شئ يخرس الالسنة و يحبس الانفاس في الصدور لكن سلسلة بيت النبوة تلقى مثل هذه الخطبة التى تجعل أسرى اهل البيت في ذروة العزّ و الشرف و تجعل الحاكم الطاغي بكل قدرته و بطشه في غاية الذل و الانحطاط.

هذه الخطبة افتتحت بالتحميد و توشيح القرآن و استهدفت قوة التأثير و استخدمت لذلك أنواع فنون التعبير البياني. فيها التضمين القرآني في قولها ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [سورة الروم: ١٠] و المحسنات البديعية كالجناس و التشبيه و الطباق في غير تكلف و لا تصنع و

التزمت الخطبة انواع السجع على أنها فصيحة اللفظ و مطردة الاغراض و المقاصد و هي نفس خصائص الاسلوب القرآني. الحقيقة هي ان بلاغة زينب عليها السلام وشجاعتها الادبية ليس من الأمور الخفية، وقد اعترف بها كل من كتب في وقعة كربلاء و نوه بجلالتها اكثر أرباب التاريخ.

فهذا الموقف الرهيب الذى وقفته هذه السيدة الطاهرة مثل الحق تمثيلاً، و افحمت يزيد و من حواه مجلسه المشوم بذلك الاسلوب العالي من البلاغة و بهت العارفين منهم بما اخذت به مجامع قلوبهم من الفصاحة، فخرست الألسن، وكمت الأفواه، و صمت الأذان، و كهربت تلك النفس النورانية القاهرة منها عليها السلام تلك النفوس الخبيثة الرذيلة من يزيد واتباعه بكهرباء الحق والفضيلة، حتى بلغ به الحال انه صبر على تكفيره وتكفير اتباعه، ولم يتمكن من ان يقطع كلامها او يمنعها من الاستمرار في خطابها، وهذا هو التصرف الذي يتصرف به ارباب الولاية متى شاءوا وارادوا، بمعونة الباري تعالى لهم، واعطائهم القدرة على ذلك.

ولما قتل الحسين عليه السلام قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة، وعظَّم مَقْتَلَه و عاب على أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد:

إنَّ أهلَ العراقِ غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلا، و إن أهلَ الكوفة شِرَارُ أهلِ العراق، و إنَّهُم دَعَوْا حسينا لينَصُرُوهُ و يُوَلُّوهُ عليهم، فلمَّا قدمَ عليهم ثارُوا إليه... لعمرِي لقد كان من خِلافهم إياه و عصيانهم مَا كانَ في مثلِه واعظٌ و ناهٍ عنهم، و لكنَّه ما حُمَّ نازلٌ، و إذا أرادَ اللهُ أمراً لن يُدْفَع أَفَبعْدَ الحسينِ نَطْمَئِنُّ إلى هؤلاء القومِ، و نصدُقُ قولَهم، و نقبَلُ لهم عهدا؟. لا، و لا نراهم لذلك أهلا أما و الله لقد قتلُوهُ طويلا بالليل قيامُه كثيراً في النهار صيامُه (صفوت، ١٤٠٥هـ. ق، ج٢، ص١٥٨).

و منه قول عبد الله بن الزبير في رثاء الحسين «أَفَبعْدَ الحسينِ نَطْمَئِنُّ إلى هؤلاء القومِ، و نصدُقُ قولَهم، و نقبَلُ

لهم عهدا؟. لا، و لا نراهم لذلك أهلا أما و الله لقد قتلُوهُ طويلا بالليل قيامُه كثيراً في النهار صيامُه» فانه قريبٌ من قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [سورة المزمل: ١ -٢].

٨. **خاتمة البحث:**

فالملاحظ في المسألة الاقتباس من القرآن الكريم و التأثر بمعانيه و أسلوبه لخطباء هذا الفترة ان هناك ظاهرتين.

الظاهرة الاولى ان خطباء هذا العصر من الخوارج و الشيعة و الزبيرين يكثر اقتباسهم من القرآن الكريم و يقل في خطب الحزب الاموي ما عدا الحجاج لانه كان يحفظ القرآن و كان يعلمه.

الظاهرة الثانية فهي ان الاقتباس من القران الكريم كان في العصر الاموي اكثر من عصر النبوة و الخلافة الراشدة، و لعل من اسباب ذلك ان القران لم يكن في عصرالنبوة و الخلافة الراشدة يحفظ او قدتَمَّ حفظه إلا من نفر قليل جدا، و لكن نجد ان الفترة الزمنية من عصر النبوة و الخلافة الراشدة الى العصر الاموي جعلت الحفاظ يكثرون و كذلك يكثر المفسرون و المحدثون و الفقهاء، و ظهرت طبقة المفسرين و القراء و الحفظة و الفقهاء و لان الرجل في عصر النبوة كان يحفظ الآيات من اجل ان يتلوها في الصلاة و اما في العصر الاموي فقد انتشر القران و كثر حفاظه اذ ان عثمان بن عفان كان قد كتب المصاحف و وزعها في الامصار، و جاء بنو امية فنشرو منها نسخا كثيرة، فسهل على المسلمين ان يقرأوا و ان يحفظوا.

ثم هناك نقطة اخرى هي ان الجهاد شغل المسلمين في عصر النبوة و الخلافة الراشدة و لكن في العصر الاموي هدأت الفتوح، و فزع كثيرمن المسلمين لتلقي العلم، فكان ابن عباس بمكة و زيد بن ثابت بالمدينة و غيرهما في الامصار يعلمون الناس و يفسرون لهم القران الكريم.

و شئي آخر هو ان المسلمين في صدر الاسلام لم تكن الفرص متاحة لهم ليشربوا معاني القران، و يمهروا في الاقتباس منه لان العهد قصير من ناحية و لان الدفاع عن النفس و عن العقيدة

شغلهم من ناحية ثانية، و لان تشرب القران يحتاج الى وقت ناحية ثالثة.

أن الخطباء قد تشبعوا بالثقافة القرآنية والألفاظ الإسلامية، بحيث لم يعد للكلمات ذات السمة الجاهلية مكاناً. لأن الأذواق قد هُذِّبت بفضل الإسلام و المجتمع أصبح متحضراً يأنف من تلك الألفاظ البدوية الخشنة التي لا تلائم البيئة والمجتمع الجديدين حيث أن القرآن الكريم جاء بجديد في كلّ فروع الحياة من دينية و سياسية و اجتماعية.

و تباين الخطباء في طريقة ذكر النص في خطبهم، فمنهم من كان يشير إلى الأخذ من القرآن الكريم، نحو (قال تعالى، وقال عز وجل) أو نحو، (وهو قول الله)، بينما أغفل بعضهم الآخر الإشارة إلى الأخذ، بل يذكره في ثنايا كلامه وكأنه جزء من خطابته

حرص الكثير من الخطباء على الأخذ من كتاب الله مع الإشارة إلى ذلك. وقد يكون هذا التوجه بدافع التنبيه على أن ما سوف يقولونه ليس من عندهم أو يكون لغرض جذب الانتباه و حسن الاصغاء. لأن للقران قداسةً في نفوس الناس، و لعل العامل الأهم في ذلك كله توثيق ما يقوله الخطيب وتعزيزه بالنص الذي يشير اليه لكسب ثقة المخاطبين و اطمئنانهم لصدق ما يذهب إليه واعظاً كان أم منظراً سياسياً أو خطيباً اجتماعياً.

أهم المصادر و المراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبه الله، ط١، ١٤٠٤هـ. ق. شرح نهج البلاغة، محقق و مصحح: محمد ابو الفضل ابراهيم، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

٢. ابن الاثير، عز الدين ابي الحسن، ٢٠٠٣م. الكامل في التاريخ. بيروت-لبنان: دار و مكتبة الهلال.

٣. ابن شعبة حراني، حسن بن علي. ط٢، ١٤٠٤هـ. ق. تحف العقول، محقق و مصحح: غفارى، على اكبر. قم: جامعه مدرسين.

٤. ابن قتيبة، ابو عبد الله محمد بن مسلم. الطبعة الاولى ١٣٧٧هـ/

١٩٥٧م. الامامة و السياسة و هو المعروف بتاريخ الخلفاء. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي و اولاده.

٥. ابن وهب، ابو الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان، ١٣٧٨ ه/ ١٩٦٧م. البرهان في وجوه البيان. تحقيق احمد مطلوب و خديجة الحديثى. بغداد: جامعة بغداد.

٦. الباقلاني، ابو بكر محمد بن الطيب. ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م. اعجاز القرآن. تحقيق السيد احمد صقر. قاهره- مصر: دار المعارف.

٧. الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد، الطبعة الاولى، ١٤١٢هـ. ق/ ١٩٩٢م، الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق: ابتسام مرهون الصفار، بغداد: دار الدفاء.

٨. الجاحظ، ابو عثمان عمر بن بحر. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. البيان و التبيين. الجزء الاول و الثاني. شرح علي أبو ملحم. بيروت: دار و مكتبة الهلال.

٩. الحاوي، ايليا. {بلاتاريخ}. فن الخطابة و تطوره عند العرب. بيروت-لبنان: دار الثقافة.

١٠. الحوفي، احمد محمد. ١٤٢٠ه/ ٢٠٠١م. فن الخطابة. قاهرة: نهضة مصر.

١١. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير. ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م. تاريخ الامم و الملوك. الجزء السادس و السابع، قاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.

١٢. علم الهدى، على بن الحسين، ط١، ١٩٩٨م، أمالي المرتضى. محقق و مصحح: ابراهيم، محمد ابوالفضل. قاهره: دار الفكر العربي.

١٣. الفاخوري، حنّا. الطبعة الاولي ١٩٨٦م. الجامع في تاريخ الادب العربي الادب القديم. بيروت: دار الجبل.

١٤. الفاخوري، حنّا، ط٤، ١٣٨٥هـ. ش. تاريخ الأدب العربي، تهران: انتشارات توس.